شرح الأربعين النووية

الحديث السادس والثلاثون

مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمِن كُربَةً

اللقاء التاسع والثلاثون

الحديث السادس والثلاثون:

عَنْ أَبي هُرَيرَة رضي الله عنه عَنِ النبي -ﷺ- قَالَ: "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمِن كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيَا نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِنْ كرَبِ يَوم القيامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعسرٍ يَسَّرَ الله عَلَيهِ في الدُّنيَا والآخِرَة، وَمَنْ سَتَرَ مُسلِمَاً سَتَرَهُ الله في الدُّنيَا وَالآخِرَة، وَاللهُ في عَونِ العَبدِ مَا كَانَ العَبدُ في عَونِ أخيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَاً يَلتَمِسُ فيهِ عِلمَاً سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طَرِيقَاً إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ يَتلونَ كِتابِ اللهِ وَيتَدارَسونهَ بَينَهُم إِلا نَزَلَت عَلَيهُم السَّكينَة وَغَشيَتهم الرَّحمَة وحَفَتهُمُ المَلائِكة وَذَكَرهُم اللهُ فيمَن عِندَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بهِ نَسَبُهُ". رواه مسلم بهذا اللفظ

ترجمة الراوي:

أَبو هُرَيرَةَ -رضي عنه- سبق الحديث عنه في اللقاءات الماضية ..... رضي الله عنه وعن صحابة رسول الله -ﷺ-.

منزلة الحديث:

هذا الحديث موقعُه عظيم؛ لِمَا فيه من البِشارة والنِّذَارة التي تدفع المؤمن للعمل في سبيل خدمة الناس، ومجالسة أهل العلم والقرآن، وذم من يتكئون على الأنساب ويُهملون الأعمال[الإلمام].

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: هذا حديث عظيم، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب، فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما يتيسر؛ من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، أو غير ذلك [شرح الأربعين لابن دقيق العيد].

شرح الحديث:

جَمَعَ هَذَا الحَدِيثُ: جُمْلَةً مِنَ الفَضَائِلِ، فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ وَنَفْعِهِمْ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَفِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِطَلَبِ العِلْمِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِ اللهِ وَتَدَارُسِهِ، وَفِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِالمِيْزَانِ الحَقِيْقِيِّ فِي تَفَاضُلِ النَّاسِ، كَمَا ظَهَرَ فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.

فَلْنَتَدَارَسْ هَذَا الحَدِيثَ، وَلْنَأْخُذْ مِنْ فَضَائِلِهِ بِنَصِيبٍ وَافِرٍ نَعْمَلُ بِهِ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ ثَمَرَاتِ العِلْمِ؛ العَمَلُ بِهِ.

نَفْعُ النَّاسِ، وَالإِحْسَانُ إِلَيهِمْ؛ وَقَضَاءُ حَوَائِجِهِمْ، وَالتَّيْسِيرُ عَلَيهِمْ، وَتَنْفِيسُ كُرُبَاتِهِمْ؛ عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ؛ جَاءَ الشَّرْعُ بِهَا، وَحَثَّ عَلَيهَا، وَأَوْفَى الجَزَاءَ لِأَهْلِهَا.

لقد حثّنا النبي -ﷺ- في أوّل وصيّته على تنفيس الكرب عن المؤمنين، ولا ريب أن هذا العمل عظيم عند الله، عظيم في نفوس الناس، إذ الحياة مليئة بالمشقات والصعوبات، مطبوعة على التعب والكدر، وقد تستحكم كربها على المؤمن، حتى يحار قلبه وفكره عن إيجاد المخرج، وحينها، ما أعظم أن يسارع المسلم في بذل المساعدة لأخيه، ومد يد العون له، والسعي لإزالة هذه الكربة أو تخفيفها، وكم لهذه المواساة من أثر في قلب المكروب، ومن هنا ناسب أن يكون جزاؤه من الله أن يفرّج عنه كربة هي أعظم من ذلك وأشد: إنها كربة الوقوف والحساب، وكربة السؤال والعقاب، فما أعظمه من أجر، وما أجزله من ثواب.

((مَنْ نَفَّسَ))؛ أي: فرَّج وأزال وكشف، ((عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً))؛ أي: شدة ومصيبة، ((مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا))؛ أي: بعض كربها، ((نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) مجازاة ومكافأة له على فعله بجنسه؛ قال النووي رحمه الله: فيه دليل على استحباب القرض، وعلى استحباب خلاص الأسير من أيدي الكفار بمال يعطيه، وعلى تخليص المسلم من أيدي الظلمة، وخلاصه من السجن [شرح الأربعين النووية للنووي].

الْكُرْبَةُ: الشِّدَّةُ وَالضِّيقُ، أَيًّا كَانَتْ هَذِهِ الكُرْبَةُ؛ سَوَاءً كَانَتْ فِي الدِّينِ أَوِ العِرْضِ أَوِ البَدَنِ، أَوِ المَالِ، أَوِ العِيَالِ.

مَنْ نَفَّسَ هَذِهِ الكُرْبَةَ؛ أَيْ: وَسَّعَهَا وَخَفَّفَهَا، وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِ أَخِيهِ فِي كَشْفِهَا؛ وَتَنْفِيسُ الكُرَبِ وَالشَّدَائِدِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِهَا؛ فَمِنْهَا مَا يُنَفَّسُ بِالمَالِ، وَمِنْهَا مَا يُنَفَّسُ بِالجَاهِ وَالشَّفَاعَةِ الحَسَنَةِ، وَمِنْهَا مَا يُنَفَّسُ بِتَطْيِيبِ النَّفْسِ بِالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَإِدْخَالِ السُّرُورِ، وَتَقْوِيَةِ الرَّجَاءِ، وَطَرْدِ اليَأْسِ وَالقُنُوطِ.

فهو يُزيلَ عنه الكُربةَ، فتنفرج عنه كربتُه، ويزول همُّه وغمُّه، فجزاءُ التَّنفيسِ التَّنفيسُ، وجزاءُ التَّفريجِ التَّفريجُ، وأبي سعيد الخدري قال: قال -ﷺ-: " أَيُّمَا مُسْلِمٍ كسا مسلمًا ثوبًا على عُرْي كساه اللهُ مِنْ خَضِرِ الْجَنَّةِ وأيُّما مسلمٍ أطعمَ مسلمًا على جوعٍ أطعمَه اللهُ من ثِمارِ الجنَّةِ وأيُّما مسلمٍ سقى مسلمًا على ظمَأٍ سقاه اللهُ من الرحيقِ المختومِ ". سنن أبي داود

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده " عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْرَى مَا كَانُوا قَطُّ، وَأَظْمَأَ مَا كَانُوا قَطُّ، وَأَنْصَبَ مَا كَانُوا قَطُّ، فَمَنْ كَسَا لِلَّهِ كَسَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَطْعَمَ لِلَّهِ أَطْعَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ سَقَى لِلَّهِ سَقَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِلَّهِ أَغْنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَنْ عَفَا لِلَّهِ أَعْفَاهُ اللَّهُ ".

❁وقوله: "كُربة من كُرَبِ يوم القيامة": ولم يقل من كرب الدنيا...: لأنَّ كُرَبَ الدُّنيا بالنِّسبة إلى كُرَب الآخرة كلا شيءٍ، فادَّخر الله جزاءَ تنفيسِ الكُرَبِ عندَه، لينفِّسَ به كُرَب الآخرة، ولنعلم تلك الشدائد التي في القيامة لنستمع لما خرَّج مسلم من حديث المقداد، عن النَّبيِّ -ﷺ-، قال: "إذا كان يومُ القيامةِ أُدنيتِ الشمسُ من العبادِ حتى تكونَ قيْدَ مِيْلٍ أو اثنينِ ، فتُصْهرُهم الشمسُ، فيكونون في العرقِ كقدْرِ أعمالِهم، فمنهم من يأخذُه إلى عقبَيْه، ومنهم من يأخذُه إلى ركبتَيْه، ومنهم من يأخذُه إلى حقْويْه، ومنهم من يُلْجِمُه إلجامًا"... عندما يدرك المؤمن هذا الكلام، حتماً سيبذل كل ما في وسعه لفكاك نفسه لأنه لا يعلم ما الذي سيكون سبب نجاته...

❍فلنسعى فِي هَذَا العَمَلِ الجَلِيلِ بِمَا نستطيع؛ فَمَنْ وُفِّقَ لَهُ وُفِّقَ لِعَظِيمٍ؛ وَهَنِيئًا لَهُ؛ يُنَفِّسُ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا وَشَدَائِدِهَا؛ فَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ جَزَاءٍ، وَأَوْسَعَهُ مِنْ عَطَاءٍ؛ وَمَا أَمَسَّ حَاجَتَنَا وَأَشَدَّهَا إِلَيْهِ. نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَلْطُفَ بِنَا، وَيُنَفِّسَ عَنَّا كُلَّ كَرْبٍ، وَيُفَرِّجَ عَنَّا كُلَّ هَمٍّ.

((ومَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ))؛ أي: سهَّل عليه وأزال عسرته، ((يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)) مجازاة ومكافأة له بجنس عمله، كما مر.

فَيَنْبَغِي الرِّفْقُ بِالنَّاسِ، وَالتَّيْسِيرُ عَلَيهِمْ، وَالتَّسَامُحُ مَعَهُمْ؛ مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى النَّاسِ دُيُونٌ أَوْ إِيْجَارَاتٌ وَنَحْوِهَا فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُوْسِرِهِمْ، وَلْيُنْظِرْ مُعْسِرَهُم، أَوْ لِيَتَجَاوَزْ عَنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280]، يَقُولُ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال-ﷺ-: "رَجُلٌ لَقِيَ رَبَّهُ، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ؟ قَالَ: مَا عَمِلْتُ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ رَجُلاً ذَا مَالٍ، فَكُنْتُ أُطَالِبُ بِهِ النَّاسَ فَكُنْتُ أَقْبَلُ الْمَيْسُورَ، وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمَعْسُورِ، فَقَالَ: تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي". أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

ومن أراد أن تُستجاب دعوته، أو تكشف كربته فليفرج عن معسر، المعسر: هو المدين الذي لا يجد ما يفي به دينه، وكلمة معسر لها مناح كثيرة، أحد هذه المناحي منحى المال، من يسر على طالب زواج، هذا معسر، وهو طالب زواج، كما قال سيدنا شعيب لسيدنا موسى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ [سورة القصص: 27]، هذا الذي يزوج ابنته لشاب تقي خلوق، ثم ييسر عليه الطلبات التي لا يقوى على تحملها، هذا يسر على معسر. أحياناً قد يحتاج الإنسان ليوم أو يومين ليقضي بها حاجة أساسية، فإذا كان شخص رب العمل، ويسرت على هذا الموظف اعساره، فهذا إعسار من جهة الوظيفة، هناك إعسار من جهة الأجرة، طبيب أجرى عملية والمريض فقير، لا بد من أن يقترض، يسر على هذا المعسر، فالتيسير على المعسر إما من جهة الأجرة، وإما من جهة الوقت، وإما من جهة تخفيف الأعباء عن طريق وضع جزء من الدين

عنه، قال -ﷺ-:" الرَّاحمونَ يرحمُهُمُ الرَّحمنُ ارحَموا من في الأرضِ يرحَمْكم من في السَّماءِ".
صحيح الترمذي

❁قوله -ﷺ-: "ومن يسَّر على مُعسِرٍ، يسَّرَ الله عليه في الدُّنيا والآخرة"، هذا أيضاً يدلُّ على أنَّ الإعسار قد يحصُل في الآخرة، وقد وصف الله يومَ القيامة بأنّه يومٌ عسير وأنّه على الكافرين غيرُ يسير، فدلَّ على أنَّه يسير على غيرهم، وقال: (وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً).

وفي الصحيحين عن أبي هُريرة عنِ النَّبيِّ -ﷺ-، قال: "كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ". وفي رواية " قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: نَحْنُ أحَقُّ بذلكَ منه، تَجاوَزُوا عنْه ". اللهم تجاوز عنا يا رب العالمين

((ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة))؛ أي: من ستر مسلمًا اطلع منه على ما لا ينبغي إظهاره من الزلات والعثرات، فإنه مأجور بما ذكره؛ مِن ستره في الدنيا والآخرة، وليس من لوازم الستر عدم التغيير، بل يغير ويستر، وهذا في حق مَن لا يُعرَف بالفساد والتمادي في الطغيان، وأما من عُرِف بذلك فإنه لا يستحب الستر عليه، بل يرفع أمره إلى مَن له الولاية، إذا لم يخَفْ من ذلك مفسدة؛ وذلك لأن الستر عليه يغريه على الفساد، ويجرئه على أذية العباد، ويجرئ غيره من أهل الشر والعناد.

📝ومِن ستر المسلم: عدمُ تتبع عوراته، بل إن تتبع عورات المسلمين علامة من علامات النفاق، ودليل على أن الإيمان لم يستقر في قلب ذلك الإنسان الذي همه أن ينقب عن مساوئ الناس ليعلنها بين الملأ، وقد رويَ عن بعض السَّلف أنَّه قال: "أدركتُ قوماً لم يكن لهم عيوبٌ، فذكروا عيوبَ الناس، فذكر الناسُ لهم عيوباً، وأدركتُ أقواماً كانت لهم عيوبٌ، فكفُّوا عن عُيوب الناس، فنُسِيَت عيوبهم".

📝السَّتْرُ عَلَى النَّاسِ وَعَدَمُ فَضِيْحَتِهِمْ وَالتَّشْهِيرِ بِهِمْ، أَدَبٌ كَرِيمٌ، يَنْبَغِي التَّذْكِيرُ بِهِ، وَتَمَسُّ الحَاجَةُ لِتَذَاكُرِهِ عِنْدَمَا وَجِدَ فِي النَّاسِ مَنْ يَتَتَبَّعُ العَثَرَاتِ؛ فَلَا يَكَادُ يَجِدُ زَلَّةً عَلَى عَالِمٍ أَوْ مَسْؤُولٍ أَوْ غَيْرِهِمْ؛ إِلَّا سَارَعَ بِتَصْوِيرِهَا وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهَا وَنَشْرِهَا لِأَكْبَرِ عَدَدٍ، وَبِأَسْرَعِ وَقْتٍ؛ ثُمَّ يَتِمُّ تَنَاقُلُهَا فِي البُيُوتِ وَالمَجَالِسِ، وعَبْرَ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ؛ فَتَنْتَشِرُ عَلَى أَوْسَعِ نِطَاقٍ، وَيَتَحَمَّلُ هُوَ وَمَنْ تَنَاقَلَهَا أَوْزَارًا عَظِيمَةً كَانُوا مِنْهَا فِي سَلَامَةٍ وَعَافِيَةٍ.

📝 قال النَّبيِّ -ﷺ-:" يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ"
صحيح أبو داود

📜فهذا صدِّيقُ الأُمَّة – رضي الله عنه – يقول: "لو لم أجد للسارق والزاني وشارب الخمر إلاَّ ثوبي، لأحببتُ أن أستره به"؛ رواه ابن أبي شيبة، وصحح سنده الحافظُ ابن حجر.

أمَّا الفاروق – رضي الله عنه – فحين سمع ذاك الرَّجل يقول للنبي – صلى الله عليه وسلم – : "إني عالجت امرأةً فأصبت منها دون أن أمسَّها"، بادره عمر – رضي الله عنه – يقول: "لقد سترك الله، لو سترت على نفسك".

وهذا ابنُ مسعود – رضي الله عنه – يُؤتى إليه في مَجلسه برجلٍ، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيتُه خمرًا فقال – رضي الله عنه –: إنَّا نُهينا عن التجسس، ولكن إنْ يظهر لنا منه شيءٌ، نأخذه به.

أما أمُّنا أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – فقد جاءتْها امرأةٌ، فأخبرتها أنَّ رجلاً قد أخذ بساقها وهي مُحرمة – أي: حاول كشف عورتها – فقاطعتها عائشةُ، وأعرضت بوجهها وقالت: "يا نساءَ المؤمنين، إذا أذنبتْ إحداكُنَّ ذنبًا، فلا تخبرن به النَّاس، ولتستغفر الله، ولتتب إليه؛ فإنَّ العباد يُعيّرونَ ولا يُغيّرون، والله يُغَيّر ولا يُعيّر.

قال ابن رجب رحمه الله: "واعلم أنَّ النَّاس على ضربين: أحدهما: من كان مستوراً لا يُعرف بشيءٍ مِنَ المعاصي، فإذا وقعت منه هفوةٌ، أو زلَّةٌ، فإنَّه لا يجوزُ كشفها، ولا هتكُها، ولا التَّحدُّث بها؛ لأنَّ ذلك غيبةٌ محرَّمة، وهذا هو الذي وردت فيه النُّصوصُ، وفي ذلك قد قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ). والمراد: إشاعةُ الفَاحِشَةِ على المؤمن المستتر فيما وقع منه، أو اتُّهِمَ به وهو بريء منه، كما في قصَّة الإفك. قال بعض الوزراء الصالحين لبعض من يأمرُ بالمعروف: اجتهد أن تستُرَ العُصَاةَ، فإنَّ ظهورَ معاصيهم عيبٌ في أهل الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب، ومثل هذا لو جاء تائباً نادماً، وأقرَّ بحدٍّ، ولم يفسِّرْهُ، لم يُستفسر منه، بل يُؤمَر بأنْ يرجع ويستُر نفسه، كما أمر النَّبيُّ – ﷺ– ماعزاً والغامدية، والثاني: من كان مشتهراً بالمعاصي، معلناً بها لا يُبالي بما ارتكبَ منها، ولا بما قيل له فهذا هو الفاجرُ المُعلِنُ، وليس له غيبة، كما نصَّ على ذلك الحسنُ البصريُّ وغيره، ومثلُ هذا لا بأس بالبحث عن أمره، لِتُقامَ عليه الحدودُ.

قال مالك: "من لم يُعْرَفْ منه أذى للناس، وإنَّما كانت منه زلَّةٌ، فلا بأس أنْ يُشفع له ما لم يبلغ الإمام، وأمَّا من عُرِفَ بشرٍّ أو فسادٍ، فلا أحبُّ أنْ يشفعَ له أحدٌ، ولكن يترك حتى يُقام عليه الحدُّ، حكاه ابن المنذر وغيره". اهـ.

((والله في عون العبد))؛ أي: معينٌ له إعانة كاملة، ((ما كان العبد في عون أخيه))، والإعانة تكون بالقلب والبدن والمال.

فَإِنَّ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي جَاءَ هَذَا الحَدِيثُ بِالحَثِّ عَلَيْهَا وَبَيَانِ عَظِيمِ الجَزَاءِ لِفَاعِلِهَا: عَونُ المُسْلِمِ لِإِخْوَانِهِ: وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: " كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ..." الخ أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

قال -ﷺ-: «أحبُّ الناسِ إلى اللهِ أنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وأحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سُرُورٌ يدْخِلُهُ على مسلمٍ، أوْ يكْشِفُ عنهُ كُرْبَةً، أوْ يقْضِي عنهُ دَيْنًا، أوْ تَطْرُدُ عنهُ جُوعًا، ولأنْ أَمْشِي مع أَخٍ لي في حاجَةٍ أحبُّ إِلَيَّ من أنْ اعْتَكِفَ في هذا المسجدِ، يعني مسجدَ المدينةِ شهرًا» (السلسلة الصحيحة).

❍فيه الحث على قضاء حوائج الناس خصوصًا الضعفاء والمحاويج، وكان عمر يتعاهد الأرامل فيستقي لهنَّ الماءَ باللَّيل، ورآه طلحةُ بالليل يدخلُ بيتَ امرأةٍ، فدخلَ إليها طلحةُ نهاراً، فإذا هي عجوزٌ عمياءُ مقعدةٌ، فسألها: ما يصنعُ هذا الرَّجلُ عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يُصلِحُني، ويخرج عنِّي الأذى، فقال طلحة: "ثكلتك أمُّكَ طلحةُ، عثراتِ عمر تتبع"؟

❍وكان أبو وائل يطوفُ على نساء الحيِّ وعجائزهم كلَّ يوم، فيشتري لهنَّ حوائجهنّ وما يُصلِحُهُنَّ.

❍وسيد الكل محمد -ﷺ- جمع المروءة كلها وكان يسعى لي حاجات الخلق حتى صار ذلك وصفه وسمته.. قالت خديجة رضي الله عنها: "والله لا يخزيك الله أبدا...إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق".

❍وعن ابنة لخباب بن الأرت رضي الله عنها وعن أبيها قالت: "خرج أبي من سرية فكان النبي -ﷺ- يتعاهدنا حتى يحلب عنزة لنا في جفنة فتمتلئ حتى تفيض".

❍وكان أبو بكر يحلب لضعفاء الحي أغنامهم فلما جاءته الخلافة قالت جارية من الحي: "الآن لا يحلب لنا". فقال: "إني لأرجو ألا يخرجني ما دخلت فيه من الخلافة عن شيء كنت أفعله قبلها".

❍فمن أعان الناس سخر الله له من يقوم بشئونه من غير أن يطلب منهم؛ وذلك لأن الله تولى شأنه.

❍وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه: "صاحب المعروف لا يقع فإن وقع وجد متكئا".

❍فأهل المروءة والنجدة لا يمكنهم أن يروا مضطرًا إلا أجابوه، ولا محتاجًا إلا أعانوه، ولا ملهوفًا إلا أغاثوه، فإن هذا من أصول المروءة كما قال ميمون بن مهران رحمه الله: "أول المروءة طلاقة الوجه، والثاني التودد، والثالث قضاء الحوائج". وقال الثوري: "المروءة: الإنصاف من النفس.. والتفضل".

❍بل إن من المصائب عند ذوي المروءات ألا يقصدهم الناس لقضاء حوائجهم.. اسمع إلى حكيم بن حزام يقول: "ما أصبحت وليس على بابي صاحب حاجة إلا علمت أنها من المصائب".

❍نحن في وقت عظمت فيه الحاجة، فلنتلمس المحاويج، ولنبدأ بالأقارب فكم من غني له أقارب يتضورون جوعًا وفقرًا، وهو عنهم بمعزل، فتجده إن أنفق تصدق على الأبعدين ولا يتفقد أقاربه، وكذلك الجيران فهم أولى بالمعروف من غيرهم، فلم ضاعت حقوق الجار هذه الأيام، وقد كانت

في السابق القريب من أعظم الحقوق، حتى كانوا يعدون الجار من أهل الدار فيحسب له في كل نفقة وطعام.

❍وَبَابُ مَعُونَةِ النَّاسِ وَاسِعٌ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى العَوْنِ فِيهِ؛ نسأل الله العلي العظيم أَنْ نَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ؛ فَاللهُ تَعَالَى: يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ؛ وَرَحْمَتُهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) [النحل: 128] جَعَلَنِي اللهُ وَإِيَّاكُن مِمَّنْ أَحْسَنُوا فِي عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَأَحْسَنُوا إِلَى إِخْوَانِهِمْ.

((ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة))؛ أي: من مشى إلى تحصيل علمٍ شرعيٍ قاصدًا به وجه الله تعالى، جازاه الله عليه بأن يوصله إلى الجنة مسلمًا مكرَمًا، ((يلتمس)) معناه يطلب؛ وهو حض وترغيب في الرحلة في طلب العلم والاجتهاد.

إن أشرف المطالب، وأعلى المواهب؛ طلب العلم الشرعي، والعناية بتحصيله، ومن وُفِّق لطلب العلم فقد وُفق للخير كله؛ كما قال نبينا -ﷺ-: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ".

وحاجة المسلم إلى طلب العلم الشرعي والعناية به من أشد الحاجات وأعظمها؛ لأن سعادته وفلاحه في دنياه وأخراه متوقفٌ على العلم، فلا سبيل إلى الجنة ولا وسيلة لتحصيل تمام المنة إلا بالعلم وتحصيله.

ولما كان للعلم منزلة عظيمة ، ومكانة رفيعة ؛ جاء الحديث ليؤكد على فضله وعلو شأنه ، فهو سبيل الله الذي ينتهي بصاحبه إلى الجنة ، والمشتغلون به إنما هم مصابيح تنير للأمة طريقها ، وهم ورثة الأنبياء والمرسلين ، لذلك شرّفهم الله تعالى بالمنزلة الرفيعة ، والمكانة عالية ، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي -ﷺ-قال : (وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العِلمِ ، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ له من في السماواتِ ومن في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ ، وإنَّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ) صحيح أبي داود، فهم أهل الذكر ، وهم أهل الخشية ، وشتان بين العالم والجاهل .

ولقد عدَّ العلماء يومًا لا تحصِّل فيه علمًا يومٌ خاسر؛ لأن طلب العلم من أهم أهداف المسلم في يومه، وكان نبينا -ﷺ- يدعو بدعوةً متكررة في كل يوم من أيامه بعد صلاة الصبح بعد أن يسلِّم؛ يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا".

إن العلم إذا وُفق العبد لتحصيله، والسعي في نيله، وتمرَّنت نفسه على ذلك؛ وجد له حلاوةً لا تضاهى ولذةً لا نظير لها، وإن كان في بداياته قد يشعر بشيء من المرارة لأنه لم يتعوَّد، فإذا تمرنت النفس وجدت لذلك لذةً عظيمة وطعمًا وهناءة؛ ولهذا ينبغي على المسلم في سلوكه لطلب العلم أن يتحلى بالصبر، ومن لا صبر عنده لا ينال علما بل لا ينال فضيلة؛ لأن الصبر تُنال به الأعمال الصالحات ويكفُّ به المرء عن المنهيات ويفيده في كل المقامات، لأنه خُلق عظيم يلازم المسلم الصادق في كل أحواله وجميع شؤونه.

((وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشِيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكَرهم الله فيمن عنده))،

وقد أخبر النبي -ﷺ- أن جزاء الذين يجلسون في بيت الله يتدارسون كتاب الله ((إلا نزلت عليهم السكينة))؛ أي: الطمأنينة والوقار، ((وغشِيتهم الرحمة))؛ أي: غطتهم وعمَّتهم، ((وحفَّتهم الملائكة))؛ أي: أحاطت بهم ملائكة الرحمة، ((وذكرهم الله فيمن عنده))؛ أي: أثنى عليهم في المقرَّبين عنده، وكفى شرفًا ذِكرُ اللهِ العبدَ في الملأ الأعلى؛ ولهذا قيل -: وأكثِرْ ذِكْرَه في الأرض دَأْبًا ♦♦♦ لتُذكَرَ في السماءِ إذا ذكَرْتَا

ثم لك أن تتأملي ما رتبه الله من الأجر والثواب لأولئك الذين اجتمعوا في بيت من بيوت الله تعالى؛ يتلون آياته، وينهلون من معانيه، لقد بشّرهم بأمور أربعة: أن تتنزّل عليهم السكينة، وتعمهم الرحمة الإلهية، وتحيط بهم الملائكة الكرام، والرابعة - وهي أحلاها وأعظمها -: أن يذكرهم الله تعالى في ملأ خير من ملئهم، ويجعلهم محل الثناء بين ملائكته، ولو لم يكن من فضائل الذكر سوى هذه لكفت.

عن البراء بن عازب -رضي الله عنه-قال: "قَرَأَ رَجُلٌ الكَهْفَ وفي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَسَلَّمَ، فَإِذَا ضَبَابَةٌ -أوْ سَحَابَةٌ- غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَهُ للنَّبيِّ -ﷺ-، فَقَالَ: اقْرَأْ فُلَانُ؛ فإنَّهَا السَّكِينَةُ نَزَلَتْ لِلْقُرْآنِ. أوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ...." صحيح البخاري

أي: إنَّ هذه السَّحابةَ كان فيها المَلائكةُ وعليهمُ السَّكينةُ نزَلوا يَستَمِعونَ للقُرْآنِ؛ وقيلَ: إنَّ السَّكينةَ شَيءٌ مِن مَخْلوقاتِ اللهِ تعالَى فيه طُمأْنينةٌ، ورَحمةٌ، ومعَه مَلائكةٌ يَستَمِعونَ القُرآنَ؛ ولذلك نفَرَتِ الدَّابَّةُ لمَّا رَأَتْهم، وهذا فيه فَضلُ قِراءةِ القُرآنِ، وأنَّها سَببُ نُزولِ الرَّحمةِ، وحُضورِ المَلائكةِ.

وبهذه السكينة يطمئن القلب، وتهدأ النفس، وينشرح الصدر، ويستقر البال والفكر، قال- تعالى-:(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد:28]

قال- تعالى-:(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس:58]،

فطوبى لهؤلاء الذين نالتهم الرحمة فكانت تلاوتهم لكتاب الله-عز وجل- ومدارستهم سبب لتغشاهم وتغمرهم رحمة الرحمن، التي بها تغفر ذنوبهم، وتكون عوناً لهم على الطاعات وفعل الخيرات.

فإذا ذكر العبد المؤمن ربه، بتلاوة كتابه وسماع آياته، قابله الله- عز وجل- على فعله من جنسه فذكره -سبحانه- في عليائه، وشتان ما بين الذكرين، ففي ذكر الله- تعالى- لعبده الرفعة، والمغفرة والرحمة، والقبول والرضوان.

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-قال: قال النبي-ﷺ-:"يقول الله تعالى:" أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني: يقولُ اللَّهُ تَعالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في

نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" صحيح البخاري.

قال ابن رجب رحمه الله: هذا يدل على استحباب الجلوس في المساجد لتلاوة القرآن ومدارسته، وهذا إن حمل على تعلُّم القرآن وتعليمه فلا خلاف في استحبابه، وفي صحيح البخاري عن عثمان عن النبي -ﷺ- قال: ((خيركم مَن تعلم القرآن وعلمه))، وإن حُمِل على ما هو أعم من ذلك دخل فيه الاجتماع في المساجد على دراسة القرآن مطلقًا، وكان النبي -ﷺ- أحيانًا يأمر مَن يقرأ القرآنَ ليسمَعَ قراءته، كما أمر ابن مسعود أن يقرأ عليه، وقال: ((إني أحب أن أسمعه من غيري))، وكان عمر يأمر من يقرأ عليه وعلى أصحابه وهم يستمعون، فتارةً يأمر أبا موسى، وتارةً يأمر عقبة بن عامر[جامع العلوم والحكم].

((ومَن بطَّأ به عملُه، لم يُسرِعْ به نسَبُه)) مَن كان عمله ناقصًا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي ألا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل.

تلك البشارات العظيمة لا تُنال إلا بجدّ المرء واجتهاده ، لا بشخصه ومكانته ، فلا ينبغي لأحد أن يتّكل على شرفه ونسبه ؛ فإنّ ميزان التفاضل عند الله تعالى هو العمل الصالح ، فلا اعتبار لمكانة الشخص إن كان مقصّرا في العمل ، ولذا يقول الله عزوجل في كتابه : (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) [المؤمنون : 101] ، وهذا رسول الله -ﷺ- لم يغن عن أبي طالب شيئا ، قال-ﷺ-: "يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئْتِ مِن مَالِي، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شيئًا" صحيح البخاري، ولقد جسّد النبي -ﷺ- هذا المعنى في كلمات جامعة حين قال : (ومن بطّأ به عمله ، لم يسرع به نسبه) .

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

المراجع:

1. من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة: عبد العال سعد الشليّه.
2. من نفس عن مؤمن: خالد بن عبد الله الشايع.
3. وَقَفَاتٌ مَعَ حَدِيثِ: (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً....): مبارك العشوان.